الناس جميعا في مخاطباتهم وفصاحتهم ويقال له المنثور من الكلام
والثالثة ضم بعض ذلك الى بعض مع اثباته مبادي ومقاطع ومداخل
ومخارج ويقال له المنظوم والرابعة ان يعتبر في اواخر الكلام مع
ذلك تسجيع ويقال له المسجع والخامسة ان يجعل له مع ذلك وزن
ويقال له الشعر والمنظوم اما محاورة ويقال له الخطابة واما مكاتبة
ويقال له الرسالة فانواع الكلام لا تخرج عن هذه الاقسام ولكل من
ذلك نظم مخصوص والقران جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شي
منها يدل على ذلك انه لا يصح ان يقال له رسالة وخطابة او شعر او
سجع كما يصح ان يقال هو كلام والبليغ اذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما
عداه من النظم ولهذا قال تعالى وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه تنبيها على ان تاليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه
البشر فيمكن ان يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الاخر قال
واما الاعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر ايضا اذا
اعتبر وذلك ايضا من صناعة محمودة كانت او مذمومة الا وبينها
وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات جميلة بدليل ان الواحد فالواحد
يوثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه في مباشرتها
فيقبلها بانشراح صدر ويزاولها باتساع قلب فلما دعى الله اهل البلاغة
والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم الى
معارضة القران وعجزهم عن الاتيان بمثله ولم يتصدوا للمعارضة لم
يخف على اولي الالباب ان صارفا الهيا صرفهم عن ذلك واي اعجاز
اعظم من ان يكون كافة البلغا عجزة في الظاهر عن معارضته مصروفة
في الباطن عنها انتهى وقال السكاكي في المفتاح اعلم ان اعجاز
القران يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها
وكالملاحة وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ولا يدرك
تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة الا باتقان علمي المعاني والبيان والتمرين

فيها

٨٤

فيها وقال ابو حيان التوحيدي سئل بندار الفارسي عن
موضع الاعجاز من القران فقال هذه مسئلة فيها حيف على المعنى وذلك
انه شبيه بقولك ما موضع الانسان من الانسان فليس للانسان موضع
من الانسان بل متى اشرت الى جملته فقد حققته ودللت على ذاته كذلك
القران لشرفه لا يشار الى شي منه الا وكان ذلك المعنى اية في نفسه
ومعجزة لمحاوله وهدى لقائله وليس في طاقة البشر الاحاطة باغراض
الله في كلامه واسراره في كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت
البصائر عنده وقال الخطابي ذهب الاكثرون من علما النظر
الى ان وجه الاعجاز فيه جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا
فيه الى حكم الذوق والتحقيق ان اجناس الكلام مختلفة ومراتبها في
درجات البيان متفاوتة فمنها البليغ الرصين الجزل ومنها الفصيح القريب
السهل ومنها الجائز الطلق الرسل وهذه اقسام الكلام الفاضل
المحمود فالاول اعلاها والثاني اوسطها والثالث ادناها واقربها فحازت
بلاغات القران من كل قسم من هذه الاقسام حصة واخذت من كل
نوع شعبة فانتظم لها بانتظام هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع
صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لان
العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة يعالجان نوعا من الزعورة
فكان اجتماع الامرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الاخر فضيلة
خص بها القران ليكون اية بينة لنبيه صلى الله عليه وسلم وانما تعذر
على البشر الاتيان بمثله لامور منها ان علمهم لا يحيط بجميع اسما اللغة
العربية واوضاعها التي هي ظروف المعاني ولا تدرك افهامهم جميع معاني
الاشيا المحمولة على تلك الالفاظ ولا تكمل معرفتهم باستيفا جميع وجوه
النظوم التي بها ائتلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الافضل
من الاحسن من وجوهها الى ان ياتوا بكلام مثله وانما يقوم الكلام بهذه
الاشيا الثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم واذا تاملت القران

Copyright © King Saud University